



علاقة المتقين بالمعاصي علاقة معقدة! ليس من السهل إدراكتها؛ إلا إذا اغترفنا من معين القرآن الكريم غرفةً تروي ظمأً جهلاً.

يقول الله تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [سورة آل عمران: 135].

فتبداً الآية الكريمة بـ{الذين} وهو اسم موصول، والمقصود بهم في الآية هم (المتقون)؛ لأن الآية قبل هذه الآية كانت هي قوله تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَجَهَنَّمْ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [سورة آل عمران: 133]، ثم ذكر صفات المتقين، فقال سبحانه: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [سورة آل عمران: 134]، ثم قال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ...}. فالآية إذن تذكر صفات أشرف درجات المؤمنين المسارعين إلى مغفرة الله تعالى ورضوانه والموعدين بجنة عرضها السموات والأرض: وهم المتقون.

ولكن الغريب أن الآية لا تزه هؤلاء المتقين من المعاصي، كما قد يتوقع بعضنا! بل إنها لا تنزعهم حتى من الكبائر (الفواحش)، كما قد يتوقعه كثيرون منا!! بل الآية لم تكتف بعدم تنزيه المتقين من المعاصي، بل إنها تُثْنِي عليهم بارتكابها!! نعم.. تُثْنِي عليهم بارتكاب المعاصي، لكن في حالة واحدة فقط: هي حيث يُتبعونها بالاستغفار الصادق، الذي يستلزم فيما يستلزم: عدم العزم على الإصرار!! ولا تُثْنِي عليهم بارتكاب المعاصي مطلقاً (فهذا لا يمكن أصلاً)، ولا تُثْنِي عليهم بعدم ارتكابها مطلقاً أيضاً (وهذا هو ما أحببت لفت الانتباه إليه)!!

ومن هذه المقدمة ندخل في استلهام بعض فوائد هذه الآية، فمن فوائدها:

أولاً: تُبيّنُ هذه الآية أن المتقين (وهم أصحاب هذا الوصف الشريف: المتقين) لا ينحصرون في المعصومين فقط!

فالمعصومون هم أنبياء الله وحدهم (عليهم الصلاة والسلام). ولا ينحصرون أيضًا في الذين يجتبنون الكبائر، ممن لا تتجاوز معصيتهم الصغار من الذنوب، فليسوا محصورين في الذين لا يرتكبون الكبائر ولا يأتون الفواحش فقط! فهذه الآية توضح أن المتقين قد يقترفون حتى الفاحشة، وقد يقعون حتى في الكبيرة؛ لكن الذي يميز هؤلاء المتقين من أهل الإيمان عن غيرهم ممن يقترفون الآثام (صغرها وكبيرها): هو أن المتقين يسارعون إلى طلب المغفرة، أي إلى الاستغفار الحقيقى (بالقلب واللسان).

وذلك أن وصف الفاحشة لا يكون وصفاً لصغار الذنوب، كما قال تعالى **{الَّذِينَ يَجْتَبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَّ}** [سورة النجم:32]، فجعل الله تعالى (اللام) وهي الصغار شيئاً مخالفًا للكبائر والفواحش، مما يبين أن الفواحش جنس من الكبائر، أو لقب آخر لها.

ومن معاني هذه الفائدة: أن مجرد ارتكاب الكبيرة لا ينافي صفة التقوى؛ إلا مع الإصرار (الذي سيأتي بيان المقصود به)، ومع عدم الاستغفار.

وازدواجاً كلام الله تعالى هذا بما يشيع بين كثير من المسلمين، بسبب وعظ جهله الوعاظ، من استحالة أن يجتمع وصف المتقين مع ارتكاب فاحشة.

ولذلك يكون الكلام الآتي للإمام أبي القاسم القشيري على جماله، وعلى صحته (من وجهه): لكنه ليس هو معنى الآية! وذلك عندما قال (رحمه الله) في تفسيره: «ويقال فاحشة كل أحد على حسب حاله ومقامه، وكذلك ظلمهم. وإن خطور المخالفات ببال الأكابر، كفّلها من الأغيار! قال قائلهم [شعرًا]:

**أنت عيني وليس من حق عيني \*\*\* غضُّ أجفانها على الأقداء**

فليس الجُرم على البساط كالذنب على الباب.

ويُقال: فعلوا فاحشة: برکونهم إلى أفعالهم، أو ظلموا أنفسهم: بملحوظة أحوالهم؛ فاستغفروا لذنوبهم، بالتبّري عن حركاتهم وسكناتهم، علمًا منهم بأنه لا وسيلة إليه إلا به، فخلّصهم من ظلمات نفوسهم. وإن رؤية الأحوال والأفعال لظلمات عند ظهور الحقائق، ومن طهّر الله بنور العناية، صانه عن التورط في المغالط البشرية».

فهذا كلام جميل جداً؛ لكن لا ينبغي أن يخالف ظاهر الآية الواضح، من أن المتقين قد يقعون في الكبيرة من كبائر الذنوب! ثانياً: تذكر الآية ظلم النفس بعد ذكر الفاحشة في سياق ما يُوجب الاستغفار، مع أن ظلم النفس اسم شامل لكل معصية: صغرت أو كبيرة، اقتصر ضررها على العاصي أو تعداه إلى غيره. مما يعني أن ذكر ظلم النفس بعد ذكر الفواحش والكبائر هو من باب العام بعد الخاص، فالكبائر نوع من أنواع ظلم النفس. مما يدلنا على المغزى من ذكر الفواحش، ومما يعيننا على اكتشاف السر في ذكر الكبائر، بل في تخصيصها بالذكر، مع إمكان الاستغفاء عنها بلفظ (ظلم النفس) الذي يشملها! ومن أوضح ما يبين ذلك المغزى ويكشف سر ذلك التخصيص بالذكر هو: لتصحيح التصور عن علاقة التقوى بارتكاب الكبائر؛ ولبيان أن الضعف البشري قد يحط المتقى في لحظة جذب الطيني ودفع غريزته الجسدية من علية الإيمان والتقوى إلى حضيض التمرّغ في وحل الفواحش، وأن ذلك (مع ذلك) لا يخرجه عن وصف المتقين، ما دام يتبع ذلك بالرجوع إلى ربه والفرار إليه بالاستغفار!

ومن فوائد ذكر ظلم النفس في هذا السياق أيضًا: بيان أن الصغار تُوجّب على المتقين الاستغفار منها أيضًا، وأن المتقين لا يستخفون بضرورة الاستغفار.. حتى من الصغار.

بل العبد يحتاج للاستغفار (حاجةً استحبابٍ لا وجوب) في كل وقت، حتى بعد الطاعة؛ لما ينتاب الطاعة من تقصير عن حق جلال الله تعالى وعظمته ولا بد، وإعلاناً للعجز عن موافاة الله تعالى حقه من الشكر على التوفيق والإعانة على أداء الطاعة؛ ولذلك كما أمر الله تعالى بالاستغفار عقب أداء مناسك الحج، في قوله تعالى {ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [سورة البقرة:199]، وكما قال تعالى في الأمر بالاستغفار عقب قيام الليل {إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَذْنَى مِنْ ثُلُثَيِ الْلَّيْلِ وَتَصْفُهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ} إلى أن قال تعالى في خاتمة الآية {وَمَا تُقْدِمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [سورة المزمل:20]، وكان من سنة النبي صلى الله عليه وسلم أن يختم صلاته للفريضة بالاستغفار ثلاثاً!

فإذا كان الاستغفار مستحبًا حتى بعد الطاعة، وهي طاعة ترضي ربَّ عزَّ وجلَّ، وتُقربُ إليه العبد؛ فكيف سينزل حُكمُه عن الوجوب بعد مخالفة أمر الله تعالى بالمعصية، ولو كانت معصيةً صغيرةً!

ثالثاً: بعد أن ذكر الله تعالى إمكانية مواجهة المتقين للفاحشة وظلم النفس ذكر ما يجعل المتقين أقربين لله تعالى بظهور الإيمان وورقة طلب المغفرة (الاستغفار)، فكان هذا الأمر الذي يرفعهم من حضيض المعصية إلى سُمُّ القُرب من العلي سُبحانه هو أنهم {ذَكَرُوا اللَّهَ}! نعم.. إنهم فقط {ذَكَرُوا اللَّهَ}!! فلم يقل الله تعالى: تذكروا عذابَ الله الأليم وأخذَه السريع، ولا قال الله تعالى: تذكروا جلالةَ من عَصَوهُ، وعزمَةَ سلطانِ من خالفوه.. ولا غير ذلك من دواعي الردع القوية الحقيقة، ومن أسباب الزجر العظيمة. بل اكتفت الآية أن يكون {ذَكَرُ اللَّهِ}.. مجرد ذِكرِ الله هو أعظمَ رادعٍ وأشدَّ زاجِرٍ. وكفى بذكر الله رادعاً عن معصيته! وكفى بذكر الله زاجراً عن التقصير في حقه سبحانه وتعالى.

الأمر حَقًا لا يحتاج أكثر من أن تذكَرَ الله تعالى، تذكَرَه فقط؛ لكي تجتب مخالفة أمره. لا تحتاج إلا أن لا تَغْفُلَ عن ذِكرِه فقط؛ لكي يدوم أنسُكَ بذلكَ القُرب بطاعته. فمجرد تذكَرَ الله تعالى يكفي لاستحضار كل معاني التعظيم حُبًّا ورجاءً وخشيةً؛ ولهذا كان كافياً للعاصي أن يذكر الله لكي يُؤوب إلى رشده ويُفرَّ إلى ربه! فليست الخشية وحدها هي الرادعة (كما ظنَّ بعضهم)؛ فرُبَّ حياءً من مُنْعِمٍ كريمٍ كان أشدَّ في الردع عن مخالفة أمره من خوف عذابه! ورُبَّ حَبَّ حَجَبَ النفسَ عن كل ما لا يحبه المحبوب أكثرَ مِنَ الْحَدَرِ مِنْ عقوبة غضبه! فذكُرُ الله على كل أنحاءه أعظمُ مانعٍ عن معصيته، وذكُرُ الله لا يجتمع مع غفلة الجهالة عن واجب تعظيمه عزَّ وجلَّ!

ولذلك كان الاستغفارُ العاجِلُ السريعُ هو النتيجة المُتَحَمِّمة لمن ذَكَرَ الله تعالى عقب معصيته {ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِهِمْ}! وهذا نحو قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِنَّا هُمْ مُبَصِّرُونَ} [سورة الأعراف:201].

رابعاً: بعد أن ذكر الله تعالى ما يُؤولُ إليه حال المتقين بعد وقوعهم في المعصية، وبعد تذكيرهم لربِّهم عزَّ وجلَّ، وأنهم يساريون إلى الاستغفار بلا ترددٍ ولا تأخيرٍ، ذكر الله تعالى سبب هذه المبادرة إلى الاستغفار والعجلة في اللجوء إليه، فقال تعالى: {وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ} [سورة آل عمران:135] والمعنى: لا عجب من هذه المبادرة إلى طلب الصفح والغفران؛ فإنه طلبٌ من تفرد بكرم الصفح والغفران على وجه الحقيقة، وهو الله تعالى.

فالأية جاءت على وجه السؤال التقريري {وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ}؟، والجواب المعلوم عن هذا السؤال: هو الله تعالى. لكن الغريب أن الآية جاءت وكأنها تمنع وقوع مغفرة الذنوب إلا من الله تعالى؛ لأنها حصرت غفران الذنوب في غفران الله تعالى. فللقائل أن يقول: ما معنى هذا الحصر؟ ومن عباد الله من يغفر ويغفر أيضًا {وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفُحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [سورة التغابن:14]، {وَلَيَعْفُوا وَلَيَصْفُحُوا} [سورة النور:22]، فكيف يُخَبِّرُ عن امتناع وقوع الغفران إلا من الله تعالى، مع وقوعه من بعض خلقه؟!

قد يُقال: إن المقصود هو أن الله وحده هو الذي له حق غفرانِ مخالفة أمره؛ فالناس قد يغفرون لمن عصاه، لكن معصية

الله تعالى لا يغفرها إلا هو وحده. وهذا معنى صحيح في ذاته بغير أدنى شك، فحق المؤاخذة على المعاشي وغُفرانها حقٌّ إلهي لا شَرَاكَةَ فِيهِ لَأَحَدٌ أَبْدًا؛ لكن هذا المعنى مع صحته فهو لا ينفع أن يكون هو المقصود في سياق هذه الآية؛ لأن الآية ليست في سياق الحديث عن كمال ربوبيته عز وجل وإنفراده سبحانه بالحكم في خلقه، حتى يكون هذا هو معنى ذلك الحصر لمغفرة الذنوب. وإنما كان سياق الآية عن بيان سعة رحمة الله وعظم حلمه وكريم عطائه في الصفح والمغفرة، مما لا يجعل المذنب عذرًا في التأخر عن طلب المغفرة، ولا يُجيز ل العاصِ أن يُبَاسَ من رحمة الله تعالى.

**إذن: فما المقصود من هذا الحصر؟!**

المقصود: التنبية على أن الفرق كبيرٌ جداً بين غفران رب العباد للعباد وغفران بعض العباد للعباد، حتى استحق أن لا يكون لغفران العباد ذكرٌ ولا له معنى في مقابل مغفرة ربهم! وهذا استعمالٌ عربٌ صحيح، فأنت تقول: وهل الشجاع إلا عنترة؟! وهل الجود إلا حاتم؟! ولا تعني نفي الشجاعة عنمن سوى عنترة، ولا نفي الجود عنمن سوى حاتم؛ ولكنك قد تريدين: إنه لا ذكر لشجاعة أحد أئمَّة شجاعة عنترة، ولا بقاء لجود كريمٍ أمامَ جُود حاتم.

وكانت مغفرة الله تعالى لذنوب عباده تستحق أن تُنفي وجود مغفرة كل من سواه لأسباب كثيرة جداً، لو لم يكن منها إلا السبب الحاضر في عامة الأذهان لكفى: وهو أن مغفرة عباده لعباده ما كان لها أن تقع بغير إذنه عز وجل، فهي في الحقيقة مِنَّةُ الله على عباده، التي أجرهاها على يدي بعضهم البعض. فكيف إذا استحضرنا أيضًا:

ـ أن معصية العبد لربه معصية حقيقة؛ لأنها معصية لمن تجب طاعته بانفراده بالخلق والأمر والربوبية. وأما معصية العبد لغيره من العباد فهي معصية غير حقيقة؛ لأنها معصية لمن لا تجب طاعته أصلًا؛ إلا بإيجاب الله تعالى لها. فكيف تشابه مغفرة الرب مغفرة العبد؟! وكيف لا تكون لاغيةً معها؟!

ـ أن قبح معصية العبد للرب لا تقاربها في القبح ولا تشبهها معصية غيره من خلقه! لأنها معصية للعظيم الذي انفرد بالعظمة الذاتية الأزلية سبحانه وتعالى. فأين يأتي قبح معصية خلقه لخلقه من قبح معصيتهم ربُّهم؟! وكلما عَظُمَ قبح المعصية، عَظُمَ قَدْرُ غُفرانها.

ـ أن كل غافرٍ من الخلق فَلِغُفرَانِه حُدُودٌ، لو لم تكن إلا حدّ حياته، وحدّ انتطاء مَحْوِ غفرانه بوفاته، لকفى أن يكون غفران الخلق لا شيء في مقابل غفران خالقهم عز وجل، الذي لا حدّ له، ولا يحجبه عن عباده كثرةً ولا فُحشًّا ولا عِظَمًّا؛ إلا الشرك والكفر. وهو غفرانٌ لا ينتهي أبدًا، فهو غفرانٌ أزلي: سَبَقَ وجود الخلق، وباقٍ بعد فنائهم، وينتظرهم يوم معادهم، ويصاحبهم في خلودهم في مستقرٍّ كرامتهم!!

فأيَّ يكون لمغفرة من سوى الله تعالى (بعد ذلك) ذكرٌ مع مغفرته سبحانه! فالله مغفرتك التي لا تُرُدُّ عن أهل توحيدك!!

خامسًا: ذكر الله تعالى في هذه الآية شرطين لوقوع المعاشي (ولو كانت فاحشة) من المتقين:

ـ سبق منها: شرط الاستغفار عَقِبَ الذنب، ولو قيل: المبادرة إليه، لكن وصفًا كاشفًا لحال استغفار المتقين.

ـ الشرط الثاني: هو عدم الإصرار {وَلَمْ يُصْرِرُوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ}.

وقد تكلمت عن الاستغفار سابقاً، وبقي الحديث عن الإصرار، فما المقصود بالإصرار المشترط انتفاوه عن المتقين، لتكون معاصيهم غير مخرجةٍ لهم عن هذا الوصف الشريف (المتقين)؟

الإصرار هو: اعتزام الدوام على الأمر، وترك الإقلاع عنه.

وقد استدل بعض أهل العلم بهذه الآية على أن مجرد الإصرار على الصغيرة سبب لتصييرها كبيرة، على حد قول ابن عباس رضي الله عنه: «لا صغيرة مع الإصرار». **وهو استدلالٌ فيه نظر؛ لسبعين:**

الأول: أن الآية تتحدث عن استحقاق وصف المتقين لمن ارتكب كبيرةً أو صغيرةً، كما سبق في الفائدة الأولى والثانية، وليس تتحدث عن بيان كيفية تحول الصغار إلى كبار. وبين السياقين فرقٌ كبيرٌ، لا يُجيز تنزيل أحدهما على الآخر؛ ذلك

أن سياق الآية يدل على تساوي الصغيرة والكبيرة في إمكان وقوعهما من المتقين إذا تحقق فيهم أمران: الاستغفار، وعدم الإصرار (المخصوص المذكور في هذه الآية). والكبيرة لا يُشترط عدم الإصرار عليها لعدّها كبيرة، فهي كبيرة ولو لم يقتربها العاصي إلا مرة واحدة. مما يُبيّن أن سياق الآية لا ينفع أن يكون دليلا على أن الإصرار هو الذي يجعل الصغيرة كبيرة؛ لأن هذا الاستدلال سيعني أن هذا الإصرار نفسه هو الذي يجعل الكبيرة كبيرة!! وهذا باطل ومتناقض، كما هو واضح.

الثاني: واضح من الآية أن عدم الإصرار المذكور فيها كما أنه شرط وصف المتقى العاصي بالتقى، فهو أيضاً شرط قبول استغفاره؛ لأن إدانته إنما استحق وصف التقى لكونه مغفورة له ارتكابه الفاحشة وظلم النفس، وهو غفرانٌ مقيّد، وليس غفراناً مطلقاً؛ لأن غفرانٌ مقيّد بترتبه بعد استغفار المتقى المصاحب لعدم إصراره. ومن المعلوم أن الله تعالى قد يغفر الكبائر، حتى دون استغفار، بمحض تفضّله وإكرامه سبحانه. فلا يمكن أن يكون المقصود بالآية تعليق مطلق المغفرة بعدم الإصرار، أو حتى بالاستغفار وحده؛ لأن الله تعالى قد أخذ على نفسه أنه قد يغفر كل ذنب، خلا الشرك والكفر *{إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرِكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ}* [سورة النساء: 116]، إذن المُناط بعدم الإصرار: هو قبول الاستغفار، وليس مطلق مغفرة المعاصي؛ فشرط رجاء قبول الاستغفار هو عدم الإصرار. ولن تكون الآية صالحة للاحتجاج بها على أن كل إصرار يجعل كل صغيرة كبيرة؛ إلا لو كان عدم الإصرار شرطاً لمطلق المغفرة، وهذا غير صحيح أصلاً، ولا هو مدلول الآية التي يجعل الإصرار شرطاً لرجاء قبول الاستغفار، لا لحصول المغفرة مطلقاً ولو بغير استغفار.

الثالث: أن الآية لم تذكر إصراراً مطلقاً، حتى يكون كل إصرارٍ على صغيرةٍ من الذنوب يجعلها كبيرة. وإنما ذكرت إصراراً مقيّداً بالعلم *{وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ}*. فاللواو في قوله *{وَلَمْ}* حالية، أي: لم يُصروا حالةً كونهم عالمين، وليس في كل أحوال إصرارهم.

فلو كانت الآية تدل على أن الإصرار على الصغيرة يجعلها كبيرة، لوجب أن تُقيّد هذا الإصرار بما قيدها به الآية، وهو إصرار العالم، وليس مطلق الإصرار كما أراد ذلك المستدل.

ومن هنا ننتقل إلى الفائدة السادسة:

السادسة: ما المقصود بقوله تعالى: *{وَهُمْ يَعْلَمُونَ}*؟

وقد اختلف العلماء في ذلك، بسبب حذف مفعول *{يَعْلَمُونَ}*، يعلمون ماذا.

لا يمكن أن تكون: يعلمون أنها معصية؛ لأن من ارتكب معصية جاهلاً بكونها معصية لا يُواحدُ أصلًا *{رَبَّنَا لَا تُواخِذْنَا إِن نَسِيْنَا أَوْ أَخْطَلْنَا}*، أي أو جهلنا. ومن قال ذلك فقد جعل الواو الحالية حالاً من الضمير في *{فَاسْتَغْفِرُوا}*، وجعل مفعول *{يَعْلَمُونَ}* المؤاخذة بالمعصية أو عفو الله عنها.

ولا يصح أن يكون المعنى: وهم يعلمون أن الله يغفر الذنوب؛ لأن الآية تذكر أنهم قد استغفروا، ولا يستغفر إلا من علم أن الله يغفر الذنوب.

ولا يقوى أن يكون المعنى: وهم يعلمون ضرر الإصرار؛ لأن من عرف المعصية أنها معصية، فقد عرف ضررها، ومن عرف ضررها فلن يجهل ضرر الإصرار عليها إجمالاً؛ إذ لا يمكن أن يكون الشيء مضرّاً مرة، ثم لا يكون مضرّاً مائة مرة!

وأحسن الأقوال في تفسيرها هو قول ابن جرير الطبرى: «لم يقيموا على ذنوبهم عامدين للمقام عليها»، فجعل معنى *{وَهُم يَعْلَمُونَ}*، أي: علم القصد والتعمّد، كما تقول: فعلت الأمر الفلانى عالماً، أو غير عالماً، أي: عامداً، أو غير عامد.

ويوضح ذلك: أن الإصرار إصراران اثنان: إصرار عمل، وإصرار نية وعزم على البقاء على الذنب، والذي يمتنع من المتقين هو الثاني، دون الأول. فإصرار العمل: هو تكراره، ولا يلزم أن يكون تكراراً مقصوداً متعمداً، بل قد يكون كلما وقع الذنب ندم عليه واستغفر، ثم خانته شهوته، وخارت عزيمته، فعاود الذنب مرة تلو مرة، ما من مرّة منها كان عازماً على إعادة ارتكاب الذنب.

إذن فالإصرار الذي يؤثر في قبول الاستغفار ليس هو مطلق تكرار مواقعة الذنب، وإنما هو إصرار العزم على الاستمرار في مواقعته، وكان هذا الإصرار هو المؤثر في قبول الاستغفار؛ لأن الاستغفار لا بد أن يتضمن ندما على الذنب، ولا يمكن أن يندم إنسان على ذنب، وهو حال ندمه يرحب في تكرار الواقع فيه.

وبذلك يتبيّن الفرق بين إصرار التقى الذي قد يقع منه في الظاهر على الذنب وإصرار الشقي عليه: فحال المؤمن التقى أنه لا يكون ذنبه إلا فلتة وزلة غير مستقرة في نيته وعزمها، وأما الفاسق الشقي فذنبه منهج حياءً يُخطط له، ولا يكاد يفارق حب العودة إليه. وبذلك فارق ذنب التقى ذنب الشقي، فربما تساوا (التقى والشقي) في عدد مرات تكرار الذنب، لكن التقى كلما أذنب استغفر نادما، وأما الشقي فلا يستغفر، وإن استغفر استغفر بلسانه غير مستشعر شيئاً من الندم، بل متشوقاً لمعاودة الذنب؛ فأئن يكون لاستغفاره معنى أو أثر؟!!

وبذلك يتبيّن فرقاً مهماً بين: استغفار التقى، وتوبيته، واستغفار الشقي:

- فاستغفار التقى: يُشترط له عدم عقد العزم على معاودة الذنب.
- وتوبيته: يُشترط لها عدم عقد العزم على عدم معاودة الذنب.

- واستغفار الشقي: هو مع عقد العزم على معاودة الذنب. [وهنا أوكّد: أن الاستغفار غير التوبة، كما بينت ذلك في مقالى الذي يعنوان: الاستغفار الذي يوجب الاستغفار: من تحاليط الوعاظ الجهلة].

ولذلك فقد ورد في الصحيحين: عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا، فَقَالَ: رَبِّي أَذْنَبْتُ، فَاغْفِرْ لِي؛ فَقَالَ رَبُّهُ: أَعْلَمُ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي. ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا، فَاغْفِرْهُ؟! فَقَالَ: أَعْلَمُ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي. ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَاغْفِرْهُ لِي؟! فَقَالَ: أَعْلَمُ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي، غَفَرْتُ لِعَبْدِي، لِعَبْدِي؛ فَلَيَعْمَلْ مَا شَاءَ)).

ومعنى قوله: ((فليعمل ما شاء)): أي ما دام كلما أذنب ندم واستغفر، فسوف أغفر له، مهما تكرر منه الذنب. والمهم في هذا الموضع: أن هذه الآية الكريمة جاءت لا لتكلّفي بتوسيع رجاء الناس في مغفرة الله ورحمته فقط، على عظيم جلاله هذه البشارة، بل لتوسيع كرم الله وجوده على عباده أيضاً، ليشمل اسم المتقين المذنبين صغائر الذنوب وكبائرها، ما داموا يتبعون معاصيهم استغفاراً صادقاً: يلزم منه ندم على الذنب، وعدم عقد النية على معاودته.

ولعظم الرجاء والجود الإلهي الذي تضمنته هذه الآية: كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول فيما ثبت عنه: «إِنَّ فِي كِتَابِ اللَّهِ لَا يَتَيَّنُ مَا أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَرَأْهُمَا، فَاسْتَغْفَرَ اللَّهُ لَهُ؛ إِلَّا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفِرُوا لِذَنْبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذَّنْبَوْ إِلَّا اللَّهُ}، وَقَوْلُهُ: {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرَ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا} [سورة النساء: 110].

فاقرؤوها، والآية الأخرى، ثم قولوا: نستغفر الله: ندماً على ما فرط منكم، غير عاقدى النية على تكرار الذنب تجدوا الله غفوراً رحيمًا!!